تصوير أخلاقيات الحرب في الغزوات النبوية

محمد نجم الحق الندوي☆

Abstract:

" Being perfect code for mankind, Islam is the greatest blessing of Allah almighty. It leads the life in all and integrates it all the rules and regulations formulated in the light of Qur'an & Sunnah are quite logical and according to the nature. Islam guarantees the social justice and brings peace prosperity by eliminating the negative forces that violate the human rights and create disturbance in society. For this purpose, the principles of war practised by the Holy Prophet Mohammad (ﷺ) in the battle field are notable, which prove that the man made slogan"everything is fair in warlove" is not justified. So the prophetic reforms regarding war are necessary to be studied for the sake of peace. In the following article the writer presents his research about the moral values reforms observed by the Holy Prophet (ﷺ) in Ghazawaat."

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فإن أخلاقيات الحرب موضوع حيوي قد عالجه العلماء والباحثون الإسلاميون والمستشرقون أيضا كذلك قديما وحديثا ويستمر الحديث عن هذا الموضوع منذ بداية الإسلام إلى يومنا هذا. يعالجه العلماء والباحثون الإسلاميون من اتجاهات دينية يعتبرونها عبادة بذكر الأسوة النبوية وممارستها بينهم ويحتسبونها أجرا عظيما في ميزان حسناتهم.

☆ الأستاذ بقسم الدعوة والدراسات الإسلامية، ومدير معهد اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، بنغلاديش.

أما المستشرقون والباحثون من أعداء الإسلام والمسلمين فكانوا يعالجون هذا الموضوع الهام من أغراض شنيعة لتشويه سمعة الإسلام ورسوله الأكرم ﷺ بين الناس ليتنفروا عن اعتناق الإسلام دينا ولإلقاء الشكوك والشبهات في قلوب المسلمين لكي يبتعدوا عن تعاليم نبيهم, وكانوا يبذلون غاية جهودهم في اتهام شخصية الرسول ﷺ بأخلاقية إنسانية رذيلة حقدا وعنادا بأنهم قالوا إن محمدا ﷺ رسول محارب يحب القتل والفساد في الأرض وبعث في شعب محارب ليست لديهم حضارة ولا يعرفون من الثقافة إلا الحرب والغارة وكانوا يقتلون الناس باسم الدين وانتصروا على الناس بسيوفهم وأجبروهم على اتباع دينهم.

ومن الحقائق الثابتة أن الإسلام دعوة عالمية ورسالة خاتمة للرسالات السابقة، أراد الله تعالى لها أن تكون دعوة إنسانية موجهة للبشر جميعًا، ورضيها الله تعالى للناس دينًا، فكانت هي الدين الكامل الذي أتمّ الله تعالى به علينا النعمة وشاء أن تكون الدعوة الإسلامية التي بعث بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كاملة وشاملة فقال تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا" (المائدة: ۳).

وفي ناحية أخرى أن شخصية الرسول ﷺ نفسها أنموذجا للإنسانية جمعاء حيث يتشرف بها في الدنيا والآخرة من يتصف بها حياته ويسترشد بها إلى بناء مستقبل ناجح كما بشر به الله تعالى عباده: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا" (الأحزاب: ۲۱) انطلاقا إلى هذا يتبادر المسلمون في اتصاف حياتهم بالأسوة النبوية في الحل والترحال وفي السلم والحرب ويعتبرونها منارة للحياة ولا يتنزلون قط عن اتصاف حياتهم بأسوة النبي ﷺ مهما كانت الظروف والأوضاع. فحاولت في هذا البحث الضئيل تصوير أخلاقيات الحرب في الغزوات النبوية التي أصبحت أنموذجا للإنسانية في كل عصر ومصر.

الجهاد في حياة الأنبياء وأتباعهم

معروف لدى الجميع أن الحرب ليست فكرة مستحدثة في الإسلام فحسب بل هي تستمر منذ تشرف الإنسان بشريعة الله تعالى لما كان الهدف من شريعة الله إقامتها في الأرض وهي مسئولية ربانية بعث بها جميع الأنبياء والرسل كما قال تعالى: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين" (الشورى: ۱۳) هذا بالإضافة إلى أنه لما كان من مسالك الشيطان لمجاهدة أهل الإيمان أن يقاتلهم بالسيف والسنان، أرسل الله عز وجل رسله بالهدى والبينات، وشرع

لهم شريعة الجهاد، حتى يستطيعوا الدفاع عما هم عليه من الحق، ودفعاً لعدوان وبغي أهل الباطل ، ونشراً للتوحيد ، وجهادا لمن كفر وأشرك برب العباد فقال تعالى" لقد أرسلنا رسلنا رسلنا بالبينات وأنزلن معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوي عزيز" (الحديد"۲۵) ولهذا السبب أرسل الله عز وجل أنبياءه لنشر عقيدة التوحيد ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها, ومجاهدة الشرك والمشركين لإعلاء كلمتى الحق والدين، وفى ذلك يخبرنا رب العالمين عن الجهاد كان فى حياة الأنبياء كافة بقوله عز وجل :"وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين" (آل عمران:۱۴۶).

الحرب فى الإسلام

وعلم من ذكر جهاد الأنبياء والرسل السابقين من سيدنا نوح عليه السلام إلى سيدنا المسيح عليه السلام في القرآن الكريم مباشرة أو غير مباشرة بأن الجهاد لم تكن شريعة محدثةً فى دين الإسلام، بل كانت فى شرائع الأنبياء أجمعين، وكان دين الإسلام هو الدين الخاتم الذى جاء به لإنقاذ البشرية من الإلحاد والشرك والوثنية وتحريف الكتب السماوية ، فَخَتَمَ الله به الرسالات ، لذلك لاقى ما لاقى من ألوان الأذى والكذب والافتراءات في حياتهم المكية فاضطر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الهجرة لإقامة دين الله في الأرض حتى واجهوا المؤامرة والاستبداد في المهجر فأذن للحرب والقتال بعد أن كانت منهية في المرحلة الابتدائية وكان ذلك فى العهد المكي، فى وقت الاستضعاف، فلم تُفرَض شريعة الجهاد فى الإسلام منذ فجر البعثة، بل أمر الله عز وجل المسلمين فى هذه المرحلة بالالتفات لتصحيح العبادة، إذ لو فُرِضَ الجهاد على المسلمين فى وقت ضعفهم وقلة عدتهم وعددهم لشَقَّ ذلك عليهم، ولكان من اليسير استئصال شأفتهم ، ولَمَا وصل إلينا هذا الدين، فكان ذلك من فضل الله ورحمته على المؤمنين ألا يكلفهم ما لا يطيقون، كما شرع رب العالمين لعباده المؤمنين الهجرة فى وقت الاستضعاف وعدم القدرة على مقاومة كيد المشركين.

الإذن بالحرب في الإسلام

فقد أباح الله تعالى لعباده المؤمنين الجهاد بعد المنع لِمَا نالوه من أذى المشركين

حينما أخرجوهم من ديارهم بغير حق وأخذوا أموالهم, فلما هاجروا إلى المدينة وحصل لهم منعة وقوة أذن لهم بالقتال, فلولا أن شرع الله عز وجل لهم القتال لتمكن أهل الباطل من أهل الإيمان فاستأصلوا شأفتهم كما كان يفعل بنو إسرائيل مع الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس فقال تعالى: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز" (الحج: ۳۹۔۴۰).

وقد كان من عادته أنه لم يكن يحب أن يسوق أصحابه إلى حرب أو مغامرة لا يجدون في أنفسهم شجاعة كافية لخوضها أو لا يؤمنون بجدواها كما تتجلى في سيرته الطيبة ومع ذلك أن القوة المعادية للإسلام قديما وحديثا وبخاصة المستشرقون والباحثون الغربيون يقولون بأن نبي الإسلام كان نبيا محاربا يحب القتل والفساد في الأرض لنشر دينه وضغطه في الناس, وذلك ادعاء لا تقوم به نصوص تاريخية يعتمد عليها بل حافظ الرسول ﷺ على حقوق الإنسان مهما كانت الظروف والأوضاع وأصبح أنموذجا لأخلاقيات الحرب.

ومعروف لدى الجميع أن أخلاقيات الحرب التي وضعها الإسلام تتجلى في الغزوات النبوية وبخاصة في: بدر وأحد وأحزاب وفتح مكة وحنين كما تجلت في صلح الحديبية بشكل واضح وكذا احتوت الغزوات الأخرى أيضا على آداب والقواعد مهمة ولكننا الاكتفاء بما ورد في هذه الغزوات نموذجا. وإن أخلاقيات الحرب التي استخلصتها من الغزوات النبوية تعد من الشواهد العلمية على رحمة النبي ﷺ وعالمية الدين الإسلامي الذي جاء به النبي ﷺ وسبق الإسلام لإقرار حقوق الإنسان في كل ناحية من نواحي الحياة البشرية بما فيها حالة الحرب قبل المنظمات الدولية الحديثة بمئات السنين.

تصوير أخلاقيات الحرب في الغزوات النبوية

من المعلوم أن حياة الرسول ﷺ في المدينة قد امتدت إلى عشر سنوات بعد أن قضى ثلاث عشرة سنة من حياته بمكة المكرمة في ظلم واستبداد وتحمل الأذى صابرا ومحتسبا معه أصحابه السابقون الأولون ورفض على المكافحة والمدافعة ضد الأعداء حتى أذن له بالقتال في السنة الثانية من الهجرة بقوله تعالى "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإنهم على نصرهم لقدير" (البقرة-) فنجد طوال سنوات المدينة بأن الظروف والأوضاع

قد اختلفت مع الرسول ﷺ لقد كون دولة وأعدها للحرب, ولكنه كان يستهدف تعليم الناس الدين الوسطي المعتدل ونشر الدعوة بين العرب وغير العرب.

ومن الطبعي أن يخوض حروبا ضارية مع الأعداء الذين لم يتركوه بوما دون نزال أو استنفار للحرب بقصد نشر دعوته, وبخاصة بعد أن صارت له دولة وأصبح معه فئة كبيرة من المؤمنين مستعدين لخوض غمار الحروب دفاعا عنه ودفاعا عن الدعوة ودفاعا عن الدولة الحديثة التي قام بها النبي ﷺ لإقامة الدين في الأرض, وقدم أصحابه النفس والنفيس في تحقيق هذه الأهداف النبيلة وفي سبيل نصرة دين الله وإعزازه ونشره من أقصى الأرض إلى أقصاها.

انطلاقا إلى ذلك أن دراسة الغزوات النبوية تفيدنا في بيان التحديات التي واجهتها الدعوة الإسلامية وكيفية مواجهة الرسول ﷺ الأعداء فنجد دروسا أخلاقية واضحة تبين لنا ما يجب أن يتبع في الجهاد وفي قتال الأعداء. ويعد صلح الحديبية علامة فارقة في تاريخ الدعوة الإسلامية بأنه آثر السلم والصلح مع الأعداء رغم الصعوبات التي تحملها في هذا الصلح ولكن الهدف الذي تحقق من هذا الصلح كان كبيرا, ألا وهو حقن الدماء حيث فتح الإسلام شبه الجزيرة العربية بدون سلاح كما مهدها لتوسيع رقعة الدعوة الإسلامية وجعلها في ممالك الأرض بإرسال وفوده ورسائله إلى كسرى والنجاشي والمقوقس وملك الروم وملوك المناطق المتاخمة للجزيرة العربية, فمنهم من استقبل رسالات الرسول ﷺ قبولا حسنا وهناك من صد واستكبر بل أرادوا قتله مما افتضى أن يجهز الجيوش لتخرج إلى مؤتة خارج الجزيرة العربية وداخل بلاد الروم في هذه المرحلة الجديدة.

تصوير أخلاقيات الحرب في غزوة بدر

تعتبر غزوة بدر أولى غزوات الرسول ﷺ الكبرى, وقد كانت في السنة الثانية الهجرية, وقد أخبر الرسول ﷺ بوجود رحلة تجارية تأتي من الشام وبها عير لقريش, وكانت قريش قد عذبت المسلمين وأخذت ديارهم وأموالهم, فطبعا أن يكون له حق أن يسترد بعض أموال المسلمين أينما وجدت, وليس مستبعدا من العادات بل كان وفقا لقانون الحرب قديما وحديثا لما بدأت الحرب قريش مع أصحاب الرسول ﷺ بمكة المكرمة وتستمر حالة الحرب بعد أن هاجر الرسول ﷺ مع أصحابه إلى المدينة المنورة أيضا. فقانون الحرب حتى الآن يسمح بمصادرة أموال الأعداء في حالة الحرب, فما بالنا إذا كان العدو قد بدأ العداء بمصادرته الأموال والممتلكات في مكة, وعذب المسلمين

وأخرجهم من ديارهم؟!

وصور القرآن الكريم أحسن تصوير لتلك الحالة " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون" (الحشر-٨) إذن فالإغارة على أموال من صادر أموال غيره هي من آثار قيام حالة الحرب بين الفريقين فضلا عن أنها هنا من قبيل ما يسمى الآن في القانون الدولي ب"حق الرد" والذي لا يسمح فقط بأخذ الأموال التي أخذت أو بالتعويض عنها بل يسمح كذلك بالأخذ بالثأر وقتل من من قتل من أفراد العدو كذلك. فنحن هنا أمام قاعدة قانونية وأخلاقية من قواعد قانون الحرب[1], وهي:

القاعدة الأولى- ضرورة المقاومة والرد الجوابي على قتل الأشخاص ومصادرة الأموال فقواعد القانون والأخلاق الانتصار من الظلم ومقاومة الطغيان بكل الوسائل.

أما القاعدة الثانية من قواعد الأخلاق في هذه الغزوة فهي تتصل بضرورة مشاورة القائد لجموع الناس. حقيقة هي ليست من قواعد قانون الحرب الحالية, ولكن الأمر يختلف مع رسول وقائد من نوع خاص حيث كان يحترم عقول أصحابه وأفكارهم, فكان يشاورهم دائما وبخاصة في الحروب. يقول القرآن الكريم " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين" (آل عمران -١٥٩). كذلك جنود الرسول ﷺ كانوا من نوع خاص, فهم فقهاء ومجتهدون. وبالفعل جمع الرسول ﷺ أصحابه وشارهم في أمر الخروج لملاقاة جيش قريش بعد أن علم بقدومهم على مقربة من المدينة....

وتكلم المهاجرون كلاما حسنا ومنهم المقداد بن عمرو فقد قال " يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك" ولكن الرسول ﷺ ظل ينظر إلى القوم ويقول لهم "أشيروا علي أيها الناس" فقال سعد بن معاذ " والله لكأنك تريدنا يا رسول الله" قال "أجل" فقال سعد "لقد آمنا بك وصدقناك, وشهدنا أن ما جئت به هو الحق, وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة, فامض لما أردت فنحن معك, فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. فسر الرسول ﷺ بقول سعد ثم قال "سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم".[2]

فالشورى هنا مهمة وبخاصة مشاورة أهل المدينة من الأنصار لأن الأمر يعينهم ويؤثر عليهم, فمن مكارم أخلاق الرسول ﷺ أنه يستشير من معه من أهل المدينة, وقد

كان يمكنه أن يمضي إلى القتال دون استشارة أحد, لكن الشورى هنا قاعدة أخلاقية ومن آثارها : إشعار القوم بأنهم أصحاب رأي ولهم كلمة فيما يؤثر على مصالحهم وعلى مستقبلهم فيمضون للقتال وهم مقتنعون به لأن القرار قرارهم فيستبسلون في القتال ولا يدخرون جهدا في بذل كل ما يمكنهم لتحقيق النصر.

وقام الرسول ﷺ باستشارة أصحابه في أمر آخر وهو: المنزل الذي نزل فيه لملاقاة أعدائه فقد نزل الرسول ﷺ منطقة العدوة الدنيا –أدنى ماء من مياه بدر- فقال الحباب بن المنذر يا رسول الله أرأيت هذا المنزل, أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه, أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال "بل هو الحرب والرأي والمكيدة" فقال فإن هذا ليس بمنزل بل الأفضل أن ننتقل بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون" فنهض الرسول ﷺ وتحول إلى المكان والرأي الذين أشار بهما الحباب رضي الله عنه.(۳)

القاعدة الثالثة التي طبقها الرسول ﷺ في غزوة بدر وفي كل غزواته بل في كل أعماله هي : الاتجاه والتضرع إلى الله عز وجل والدعاء بالنصر على الأعداء. وهنا نأخذ قاعدة مهمة هي :أنه مهما كان الاستعداد والعدة للأمر والأخذ دائما بالأسباب, فإن هذا لا يغني أبدا النجاح العمل عن توفيق الله تعالى. ربما اتخذ ذلك في هذه الغزوة بعدا كبيرا, لقد كانت الغزوة الأولى في تاريخ الإسلام, ومن ثم فإن نتيجة المعركة سيكون لها أثر كبير في مستقبل الإسلام والمسلمين.

وقد عبر الرسول ﷺ عن ذلك بجلاء في دعائه حيث ورد عنه قوله ﷺ "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك. اللهم فنصرك الذي وعدتني..." وظل يناشد الله متضرعا وخاشعا وهو يبسط كفيه إلى السماء حتى أشفق عليه أبو بكر الصديق فالتزمه من ورائه وقال له "يا رسول الله أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزن الله لك ما وعدك".(۴) وأقبل المسلمون أيضا يستنصرون الله ويستغيثونه ويخلصون له في الإسلام حيث ورد عن الرسول ﷺ أنه قال " اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض بعد اليوم".(۵)

إنها معركة فاصلة ذات أثر كبير على مستقبل العبادة الحقة لله عز وجل بعد أن تاهت البشرية عن العبادة الحقة واتبعت سبلا مختلفة. إن أخلاقيات الحرب في الإسلام تختلف عن أخلاقياتها في القوانين الحديثة والحروب الأخرى القديمة من هذه الزاوية, وقد عبر القرآن عن ذلك في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى "إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون

كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما" (النساء:۱۰۴) وقوله تعالى "قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم بعذاب من عنده أو بأيجينا فتربصوا إنا معكم متربصون" (التوبة: ۵۲).

إنه لتسليم كامل لله عز وجل, وثقة مطلقة في حكمه, وأيا كان الأمر فإنه خير للمسلمين, فإما الشهادة والجنة وإما النصر في الدنيا وتعذيب المشركين بأيدي المؤمنين, وهذه غاية أخرى يطلبها كل مؤمن, وهذه من القواعد الأخلافية ذات الطابع المعنوي الذي يستحث المؤمن على النصر أو الشهادة وهي ما يفتقر إليه أي محارب لا يعرف الله عز وجل.

القاعدة الرابعة التي كانت صلتها فهي تتصل بمعاملة الأسرى, وقد عاملهم الرسول ﷺ برفق وأوصى أصحابه بأن يستوصوا بهم خيرا على ما سنفصله في موضع آخر.

أما القاعدة الخامسة التي كانت صلتها بأخلاقيات الحرب فهي تتصل بالغنائم وطريقة توزيعها على المسلمين. فقبل الإسلام هناك كانت هناك فوضى في شن الحروب وفي توزيع أسلابها على المقاتلين, أما بعد الإسلام فقد أصبحت هناك قواعد للقسمة تقضي بتجنيب الخمس للرسول ﷺ وتوزيع الأخماس الأخرى على المقاتلين للفارس سهمان وللراجل سهم واحد.

وتدلنا أحداث السيرة على المسلمين في بداية عهدهم بالإسلام وبالغنائم كانوا يتزاحمون على أخذها, بل وعلى الخمس المخصص للرسول ﷺ كما حدث في غزوة بدر وأحد, بل أكثر من ذلك في غزوة حنين حيث ألجأوا الرسول ﷺ إلى شجرة وهو يخبرهم بأنه ما أخذ إلا الخمس وسيعود به عليهم, إذ هو يعطي للفقراء والمساكين وفقا لقواعد الاستحقاق من بيت المال.

تصوير أخلاقيات الحرب في غزوة أحد

إن غزوة أحد من الغزوات المثيرة للجدل بالفعل, لقد نصر الله عز وجل المسلمين نصرا قويا قبل سنة في غزوة بدر وعاد المشركون إلى المدينة ليعتدوا مرة ثانية على المسلمين وينتقموا لهزيمتهم البشعة في غزوة بدر, ولعل ذلك ما أكده أبو سفيان في آخر الحرب إذ قال "يوم بيوم بدر والحرب سجال". فهنا يظهر أبو سفيان استمرار الحرب بين معسكر الشرك الذي يقوده ومعسكر التوحيد الذي يقوده الرسول ﷺ ولم يرد الرسول ﷺ على هذا القول كما لم تبدو منه أية استفزازات لقريش طوال هذه المدة.

فهذه الغزوة تتحمل أسئلة كثيرة ومن أهمها أن المسلمين كانوا يحاربون لإقامة دين الله في الأرض تحت قيادة رسوله وأن الله مع المسلمين وهو الذي يحقق لهم النصر على عدوهم دائما فلماذا الخذلان للمسلمين في هذه الغزوة؟ إن القرآن الكريم أعرب عن أسباب النصر والهزيمة في هذه الغزوة وهي يعطي دروسا للمسلمين في أخلاقيات الحرب وأسباب النصر والهزيمة. لقد كان هناك تحقيق لوعد الله تعالى لرسوله ﷺ بالنصر على أعداء الله في بداية الحرب وأعرب القرآن الكريم " ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا الله عنكم والله ذو فضل على المؤمنين" (آل عمران: ۱۵۲).

أولا: فمن الفطرة أن الدنيا تسير على الأسباب ولا يوجد استثناء من ذلك, وهذه قاعدة محققة, لقد كان الموقف في غزوة بدر مختلفا حيث كان المسلمون رغم عددهم قلة أنهم تألفوا واتحدوا والتفوا حول الرسول ﷺ وبذلوا غاية جهودهم لينتصروا جهادا في سبيل الله. ولكن هذه المرة اختلفوا والقرآن الكريم وصف ما حدث منهم بأنه فشل وتنازع وعصيان للرسول ﷺ بل أن بعضهم كان قلبه معلق بالدنيا ويريد غنائم الحرب "منكم من يريد الدنيا" (آل عمران: ۱۵۲) ويصف القرآن الكريم عصيان الرسول ﷺ في نفس السورة "إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون" (آل عمران: ۱۵۳). قد تسببوا بالانصراف إلى الغنائم وعصيان أوامر الرسول ﷺ في الهزيمة وفي إصابة الرسول ﷺ وفي غمه وحزنه فأصابهم الله تعالى بالهزيمة.

ثانيا: هناك مسئلة أخرى مهمة وهي تعليم المسلمين أن النصر والهزيمة هما من خصائص وميزات هذه الدنيا فلا يوجد نصر دائم ولا هزيمة دائمة. ورغم أنه درس ورد في غزوة أحد فإنه واضح لنا الآن, ومن ثم ينبغي أن لا نقنط من رحمة الله إذا هزمنا في إحدى الغزوات خاصة إذا كان الإنسان هو المتسبب في تلك الهزيمة, ونجد أكثر من آية في هذا المعنى كما يقول تعالى " قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين" (آل عمران: ۱۳۷) وكذا قال تعالى "إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين" آل عمران: ۱۴۰).

ثالثا: تمحيص المسلمين وإيضاح قدراتهم وإن ذلك لا يكون إلا باجتياز الهزيمة

والصبر عليها والاستفادة منها كما قال تعالى "وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين" (آل عمران: ۱۴۱).

والقرآن الكريم ينبه المسلمين هنا إلى أن الأيام دول ولا يجب أن نيأس من الهزيمة وينبغي للمسلمين أن يعرفوا الأسباب ونتائجها.ومن المهم أن الملقاة على المسلمين كبيرة وصعبة ولا بد أن يتهيأوا لها ولن تكون هذه التهيئة إلا بالمرور بالنصر والهزيمة أيضا, وعادة ما يأتي النجاح من الفشل والقوة من استيعاب أسباب الضعف والتغلب عليها.

وفي غزوة أحد كان كفار قريش يريدون الانتقام من هزيمتهم المنكرة في غزوة بدر, ومن ثم كانت حربا مشوبة بدوافع الانتقام والأخذ بالثأر من المسلمين, ومرة ثانية كانت الحرب من قبل المسلمين حربا دفاعية, ولا أدل على ذلك من أن الكفار جاءوا إلى أبواب المدينة دولة الرسول ﷺ والمسلمين.

وهنا تتبلور القاعدة الأساسية لأسباب الحرب في الإسلام وهي: الدفاع عن النفس والدفاع عن الدعوة. وتسجل الآيات الأخيرة من سورة آل عمران أخلاقيات الحرب ودروس النصر والهزيمة ليأخذ المسلمون عبرا من الحياة وليأخذوا بالأسباب, فأسباب النصر في الحروب معروفة والله قادر على النصر عباده دائما ولكن طالما أن الإنسان يعيش على الأرض فإنه يخضع لقانون الأسباب وإذا خالف أسباب النصر هزم.

ومن هنا تثبت آيات القرآن الكريم أن النصر في الجولة الأولى كان للمسلمين ولكن عندما تنازعوا وعصوا أوامر الرسول ﷺ وغرتهم الحياة الدنيا كانت الهزيمة غلبت عليهم كما يقول تعالى "ولقد نصركم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين" (آل عمران: ۱۵۲).

الإصرار على تحقيق السلام في عهد الحديبية

لقد جعل الله مكة بلدا آمنا وحرم فيها القتال وجعل أول بيت لعبادته فيها كما قال تعالى "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين" (آل عمران: ۹۶). ومع ذلك ورغم أن البيت مفتوح لكل الناس يأتون إليه في كل وقت, فإنه بالنسبة للمسلمين عكس ذلك فقد صدتهم قريش عن الدخول فيه دون سائر الناس, وفي ذلك نزل قوله تعالى "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد

الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" (البقرة:۲۱۷) وكذا يقول تعالى "وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياؤه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون, وما كانت صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون, إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون" (الأنفال:۳۴-۳۶).

فالمسلمون لا يبدأون أحدا بقتال لكن إذا كانت قريش قد صدتهم عن المسجد الحرام ولو أدى الأمر إلى قتال من يمنعهم ويصدهم عنه ولو كان ذلك في الأشهر الحرام.

ومع ذلك ففي الحديبية لم يكن الرسول ﷺ ولا المسلمون يرغبون في القتال, وإنما كانوا يريدون العمرة فحسب, وكسر الحصار المضروب عليهم للدخول في بيت الله الحرام. كان المسلمون محرمين وكانوا يسوقون الهدي, ومع ذلك عندما علمت قريش بقدومهم استعدوا لمنعهم بالقوة ووضعوا أمامهم الفرسان ورأى الرسول ﷺ أن عليه اقتحام هذه الجنود المتراصة لدخوله مكة المكرمة ولكن لرغبة الرسول ﷺ في السلام, رأى أن يتخذ طريقا آخر لا يواجه جيش قريش, ودله بعض أصحابه على طريق وعر وصعب هو طريق الحديبية. ومع ذلك بدأت الرسل بينه وبين قريش. وهنا ينقل عنه ﷺ قوله "يا ويح قريش!! لقد أهلكتهم الحرب".(۲) وبالفعل أرسلت قريش سهيل بن عمرو الرسول ﷺ بهذه الخطة وقبلها الرسول ﷺ بكل ما فيها من شروط مجحفة, أقلها عودة المسلمين من عامهم هذا إلى المدينة دون أداء العمرة وعودتهم في العام المقبل ليس معهم إلا السيوف في جرابها وأكثرها أن من جاء محمدا بغير إذن وليه رده إلى قريش وعدم رد قريش من يأتيها بدون إذن محمد ﷺ ...!!! ومع طعاظم غضب المسلمين من هذه الشروط المجحفة بل رفض بعضهم اتباع أوامر الرسول ﷺ دخل إلى خيمة زوجته أم سلمة غاضبا حزينا يقول لها "هلك الناس هلك الناس يعصون أمر نبيهم فنزلت سورة الفتح التي اعتبرت أن السلام الذي تحقق في الحديبية نصر كبير وأعربه الله تعالى بفتح مبين يقول تعالى "إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما" (الفتح: ۱-۲) ويعطينا عهد الحديبية مجموعة من أخلاقيات الحرب المهمة, نذكرها فيما يلي:

۱) عدم الدخول في الحرب مع العدو كلما كان ذلك ممكنا, وبذل كل جهد لتفادي الدخول في الحرب, يقول الرسول ﷺ "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيف".(۷)

۲) الانصياع لأي خطط تؤدي إلى تحقيق السلام وعدم الدخول في الحرب حتى لو تمت تنازلات يمكن احتمالها.

۳) اتباع كافة الطرق التي تؤدي إلى تجنب سفك الدماء, ولو نتج عن ذلك متاعب للجيش الإسلامي.

۴) إن مزايا السلام تفوق دائما مزايا الحرب في كل زمان وفي كل عصر.

۵) إن مسالمة العدو والتعاقد معه لتجنب الحرب وتجنب إراقة الدماء من الأمور المشروعة بل المستحبة في الإسلام.

۶) إنه يمتنع قتل رسل السلام التي يرسلها أحد الطرفين للآخر للتفاوض للصلح أولا, أو لأي هدف سلمي آخر, وإن جزاء قتل الرسل يمكن أن تكون الحرب لازمة, والدليل على ذلم أن الرسول ﷺ قد أخذ بيعة الرضوان من المسلمين الذين كانوا معه, عندما أشيع أن رسوله (عثمان بن عفان) إلى قريش قد قتل.

تصوير أخلاقيات الحرب في فتح مكة

أول ما يلفت النظر في دروس الأخلاقيات في فتح مكة هو تمسك الرسول ﷺ بالوفاء بالعهد بإنفاذ ما تم الاتفاق عليه في صلحه مع قريش في الحديبية. فقد كان أهم بنود هذا الصلح هو البند الذي يقول "إن من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه, ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه"(۸) وبناء على ذلك دخلت خزاعة في هذا العهد منضمة إلى الرسول ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش, وكان بين خزاعة وبني بكر غارات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية وانحياز كل من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين, فلما كانت مؤتة وخيل إلى قريش أن المسلمين قضي عليهم, خيل إلى بني الديل من بني بكر بن عبد مناف أن الفرصة سنحت لهم ليصيبوا من خزاعة بثاراتهم القديمة.

وحرضهم على ذلك جماعة من قريش منهم عكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش, وأمدوهم بالسلاح, وبينما خزاعة ذات ليلة على ماء لها يدعى "الوتير" إذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا أناسا منهم, ففزعت خزاعة إلى مكة ولجأوا إلى دار بديل بن ورقاء, وشكوا

إليه نقض قريش ونقض بني بكر عهدهم مع الرسول ﷺ وسارع عمرو بن سالم الخزاعي, فغدا متوجها إلى المدينة حتى وقف بين يدي الرسول ﷺ وهو جالس في المسجد بين الناس, وجعل يقص ما حدث ويستنصره, فقال الرسول ﷺ "نصرت يا عمرو بن سالم" ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة, فأخبروا الرسول ﷺ بما أصابهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم, عند ذلك رأى الرسول ﷺ أن ما قامت به قريش من نقض عهد لا مقابل له إلا فتح مكة, وأنه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين في أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة الاستعداد لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء.

أما حكماء قريش وأصحاب الرأي فيها فما لبثوا أن قدروا ما عرضه لهم عكرمة ومن معه من الشبان من خطر, فهذا عهد الحديبية قد نقض, وهذا سلطان محمد ﷺ في شبه الجزيرة يزداد بأسا وقوة, ولئن فكر بعد الذي حدث في أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لتتعرض المدينة المقدسة لأشد الخطر, فماذا تراهم يصنعون, أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليثبت العقد وليزيد في المدة, ولعل المدة كانت سنتين فكانت يريدونه عشر.(۹) وخرج أبو سفيان –قائدهم وحكيمهم- يريد المدينة فلما بلغ من طريقه عسفان لقيه بديل بن ورقاء وأصحابه, فخاف أن يكون قد جاء محمدا وأخبره بما حدث, فيزيد ذلك في مهمته تعقيدا وقد نفي بديل مقابلته محمدا ولكنه عرف من بعر راحلة بديل أنه كان بالمدينة لذلك آثر ألا يكون محمد أول من لقي فجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوجة الرسول ﷺ.(۱۰)

ولعلها كانت قد عرفت عواطف النبي ﷺ إزاء قريش, وإن لم تكن تعلم ما في اعتزامه في أمر مكة ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعا, فقد أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبي ﷺ فطوته أم حبيبة فلما سألها أبو ها: أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها؟ كان جوابها: هو فراش الرسول ﷺ وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه, قال أبو سفيان: والله يا ابنتي بعدي شر! وخرج مغضبا, ثم كلم محمدا في العهد وإطالة مدته فلم يرد عليه بشيء, فكلم أبا بكر ليكلم له الرسول ﷺ فأبى, فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له الرد وقال "أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر فجاهدتكم به". ودخل أبو سفيان على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة فعرض عليه ما جاء فيه واستشفعه الرسول ﷺ فأنبأه علي في رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد محمدا عن أمر إذا هو اعتزمه. واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس فقالت: ما يجير أحد على رسول الله. واشتدت الأمور على أبي سفيان فاستنصح عليا فقال له : "والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا, لكنك سيد بني كنانة, فقم فاجر بين الناس ثم الحق

بأرضك, وما أظن ذلك مغنيا ولكني لا أجد لك غيره", فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجار بين الناس ثم ركب راحلته وانطلق ذاهبا إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقي من هوان على يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا -قبل هجرتهم من مكة- يرتجون منه نظرة عطف أو رضا.

وتزهم دراسة حديثة أن النبي ﷺ قد نقض عهد الحديبية كعهده في عدم احترام العهود, وأن المسلمين اليوم مثله لا يعرفون عهدا ولا ميثاقا, وأتيقن أن العكس هو الصحيح دائما. فمدة صلح الحديبية سنتان على القول الراجح ولم يرد النبي ﷺ أن يداهم مكة إلا بعد مضي هذه المدة, فلم ينقض أي عهد إذن كما يزعمون. وحتى على فرض أن العهد مته عشر سنين -على زعم آخر- فإن ما فعلته قريش هذا يعد نقضا للعهد, فعهد الحديبية يعتبر عهد عدم اعتداء في المدة المحددة فيه, فإذا ما قامت قريش بمناصرة عدوان على من دخل في عهد محمد ﷺ طبقا لاتفاق الحديبية لصالح حليف لها دخل في العهد معها, فإنها تكون قد فسخت العهد وعادت حالة الحرب المعلنة بين الطرفين إلى سابق عهدها قبل الصلح, فما جدوى الاحتفاظ بعهد لم يحترمه أحد أطرافه؟

لقد ثبت أن قريش قد أمدت بني بكر بالسلاح في حربها ضد خزاعة, وأنه قد قتل عدد كبير من أنصار النبي ﷺ على يدها — بصرف النظر عن عقيدتهم بالطبع- فإن النبي ﷺ من حقه أن ينقض المعاهدة لنقضها من الطرف الثاني أولا, وهي قاعدة مقررة في القانون الدولي والقانون المحلي على السواء, فإن أهم سبب لانقضاء المعاهدة في القانون الدولي عدم وفاء المتعاقد الآخر بالالتزاماته, فمن حق الطرف الآخر أن يدفع بعدم تنفيذ المعاهدة رداعلى ذلك وهو ما أيدته نظرية فيينا لقانون المعاهدات المبرمة عام 1969م.(11) وهنا فإن ما حدث من قريش ليس مجرد امتناع سلبي عن الوفاء بالمعاهدة بل فعل إيجابي يتمثل في نقض صريح للمعاهدة.

ولأهمية الوفاء بالعهد لم يقبل النبي ﷺ أية محاولات للصلح ولتمديد المعاهدة, حيث سافر أبو سفيان نفسه إلى المدينة لمد أجل المعاهدة, ولكن النبي ﷺ قد رفض, وهنا نجد أن إحدى القواعد الأخلاقية للحرب قد أرسيت, وهي: عدم قبول نقض معاهدة عمد الاعتداء, والإصرار على الرد على النقض والعدوان بمثله.

ومن المسائل المحيرة أن يرسل أحد الصحابة خطابا إلى قريش يخبرها بخبر استعداد محمد ﷺ للحرب ومداهمته لقريش هو الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة, ويعد هذا العمل تجسسا بلغة الحرب قديما وحديثا ويعاقب من يفعل ذلك بعقوبات قاسية.

ومعروف لدى الجميع أن التجسس هو إحدى جرائم الحرب وهي بمثابة الخيانة العظمى في القانون الدولي أيضا. ومع ذلك ورغم ثبوت الفعل إذ أخبر النبي ﷺ به وأرسل عليا بن أبي طالب والزبير بن العوام إلى المرأة التي حملها حاطب الرسالة, واعترف حاطب إذ قال " والله يا رسول الله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عسيرة, وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل, فصانعتهم عليهم".

اعتراف كامل جعل عمر بن الخطاب يطلب من النبي ﷺ الإذن له أن يضؤب عنقه ووصف فعلته بالنفاق. ولكن النبي ﷺ رفض وقال لعمر "لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" وكان حاطب ممن شهد بدرا, وقد اعتبر محمد حسين هيكل ما فعله حاطب نوعا من الضعف الإنساني, وعموما فإن ذلك يعطينا إحدى أخلاقيات الحرب في الإسلام, وهي: أنه أثناء الحرب أو التجهيز لها لا يجوز معاقبة أحد المسلمين على خطأ يقع فيه, فالرسول ﷺ سامح حاطبا على فعل شائن بلاشك كان يمكنه أن يؤثر على مسيرة الحرب بين المسلمين وقريش لو تمت". (۱۲) يجب أن يأخذ الجيش المحارب بكل أسباب القوة بما في ذلك الإفطار في شهر رمضان فقد قام الرسول ﷺ بالرحيل إلى مكة عند نقطة تسمى وادي الكدية فيه ماء فأفطر وأفطر الناس معه.

البحث عن نطاق النصر بإظهار قوة حقيقية أو مختلفة لإرهاب العدو

ورغم أن قوام الجيش الإسلامي الفاتح عشرة آلاف مقاتل هي إحدى النبوءات التي وردت في التورات عن محمد ﷺ حيث جاء بها, خرج إلى الأمام ومعه عشرة آلاف من الأبرار إلا أن محمدا ﷺ أمر أصحابه أن يوقد كل منهم نارا, مما جعل الخوف يغشي قريش, وقد ورد أن أبا سفيان لما رأى هذه النيران الكثيفة قال: "ما رأيت كالليلة نيرانا قط وعسكرا".

ويدخل في هذا القبيل أيضا أن الرسول ﷺ عندما غادر من الظهران إلى مكة طلب من العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خضم الجبل حتى يمر به جنود الله فيراها ففعل, فمرت القبائل على راياتها, كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء؟ فيقول سليم -مثلا- فيقول: ما لي ولسليم؟ ثم تمر به القبيلة, فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فيقول: مزينة, فيقول: ما لي ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل, ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها, فإذا أخبره قال مالي ولبني فلان؟ حتى مر به الرسول ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما. قال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة, قال: فنعم إذن. (۱۳)

ومما يدل على كراهية الحرب في هذا اليوم وعدم رغبة الرسول ﷺ في استحابة مكة أرض الله الحرام, أن الرسول ﷺ سمع سعد بن عبادة—كان يحمل راية الأنصار- يقول: "اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة" فرد الرسول ﷺ بالقول: اليوم يوم المرحمة" ونزع الراية من يد سعد وأعطاها لابنه قيس. فلم يقبل الرسول ﷺ في هذا اليوم العظيم أن يستحل حرمة مكة بل خطب في الناس بعد دخول الكعبة وقال الرسول ﷺ "أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض, فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة, فلا يحل لامرئ يومن بالله واليوم الآخر أن يسفك دما أو يعضد بها شجرة, فإن أحد ترخص لقتال الرسول ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم, وإنما حلت لي ساعة من نهار, وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس, فليبلغ الشاهد الغائب.

وفي رواية لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا تلتقط ساقطته ولا من عرفها ولا يختلى خلاه, فقال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر, فإنه لقينهم وبيوتهم, فقال: إلا الأذخر.

وكانت خزاعة قد قتلت يومئذ رجلا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية, فقال الرسول ﷺ بهذا الصدد: يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع, لقد قتلتم قتيلا لأدينه. فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين, إن شاءوا فدم قاتله وإن شاءوا فعقله. وفي رواية فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاة فقال: اكتب لي يا رسول الله ﷺ, فقال رسول الله "اكتبوا لأبي شاة".

تصوير أخلاقيات الحرب في غزوة حنين

تعتبر غزوة حنين من أهم الغزوات التي حدثت في التاريخ الإسلامي وذلك لعدة أسباب, منها: أنها وقعت بعد فتح مكة في العام الثامن الهجري, ومن ثم كان من الطبيعي أن يشارك فيها من شارك في فتح مكة من المهاجرين والأنصار, ثم من انضم إليهم من أهل مكة, ثم طائفة من الذين أسلموا حديثا بعد فتح مكة, ومنهم حديثو عهد بالإسلام بل ومنهم من لم يؤمن بعد, أي أن المؤلفة قلوبهم شاركوا أيضا في الغزوة. كان العدد الكبير في هذا الجيش بل لعله كان أكبر الجيوش التي قاتلت تحت إمرة الرسول ﷺ نفسه, ولذا قال نفر من الصحابة لن نهزم اليوم من قلة, ستكون الهزيمة إن وقعت لسبب آخر. ولقد كان البعض في حالة زهو ويمتلئ ثقة بالنصر.

وقد كانت الحرب بين المسلمين وثقيف وهوازن أهل الطائف الذين سبق لهم أن أهانوا الرسول ﷺ ورفضوا دعوته وأوقعوا به الأذى وسلطوا عليه أطفالهم وسفهاءهم يلقونه بالحجارة, وتعرض الرسول ﷺ لموقف إنساني بالغ الحساسية. ويصور القرآن

الكريم حال المسلمين في هذه الغزوة في قوله تعالى "قد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلن تغن عنكم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين" (التوبة:25).

إن هذه الغزوة قد شهدت تقسيما مختلفا من الغنائم, فقد أخذ أغلبها قادة قريش الذين كانوا دائما ضد الإسلام والمسلمين, وعلى رأسهم أبو سفيان وصفوان بن أمية ولكنهم تطلعوا إلى الغنائم بشراهة بالغة, والأمر الذي كان من أهم أسباب الهزيمة التي كادت أن تجيط بالمسلمين في بداية الغزوة, والغريب أنهم أثناء التقسيم عاملوا الرسول ﷺ بشدة لم يعتد عليها من المسلمين الأولين .(۱۳) وقد حرم الرسول ﷺ الأنصار من الغنائم وكذا بعض كبار الصحابة ممن أبلوا في الإسلام بلاء حسنا, من هنا جاءت أهم دروس غزوة حنين. فلقد واجه سعد بن عبادة زعيم الأنصار الرسول ﷺ باحتجاج الأنصار بعد القسمة وراح الرسول ﷺ يهدئ من روعهم بعد المعركة لم يعاقبهم مع أنه كان بإمكانه أن يفعل ذلك, لأنه قائد عسكري في وسط ميدان الحرب وفريق من جيشه يعترض عليه, وإن كانت القاعدة دائما أن الرسول ﷺ يشاور أصحابه ويرضى الغاضب منهم خاصة إذا كان لهذا الغضب محله. لقد كانت غنائم غزوة حنين أكثر الغنائم التي نالها المسلمون في أي حرب, وقد طلب الرسول ﷺ من سعد أن يجمع له كتيبة الأنصار ودار بينه وبينهم هذا الحوار الرائع, والذي يدل على أن الأموال ليست هي كل شيئ لدى المؤمنين الأخيار. وإليكم نص الحوار الرائع بين الرسول ﷺ وبين الأنصار:

طبقا لقواعد الأنفال فقد أعطى الرسول ﷺ لسادات قريش من مال الغير, فأدى ذلك إلى تهامس الأنصار, وجعلوا يتحدثون إلى بعضهم البعض, وقال بعضهم " لقي والله رسول الله قومه".

ولقد كان بإمكان الرسول ﷺ أن يأخذ من مال ذلك بالشدة ولكنه استدعى الأنصار حتى يقضى على أي بادرة للفتنة أو للتأثير على البناء الضخم الذي أقامه, ومن ثم دار بينه وبينهم حوار يعد من أفضل وثائق الأدب السياسي والإنساني على مر العصور:

قال الرسول ﷺ "يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموه في أنفسكم".

قال الأنصار: منا من يقول ذلك ونحن نؤيده.

قال الرسول ﷺ "ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم؟"

قال الأنصار: بلى والله ورسوله أمن وأفضل.

فقال الرسول ﷺ "ألا تجيبوني يا معشر الأنصار".

فقالوا: وبم نجيبك يا رسول الله؟ لله المن والفضل.

قال الرسول ﷺ "والله إن شئتم لقلتم ولصدقتم أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في العلالة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا, ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحابكم, فوالذي نفس محمد بيده, لو لا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار, لو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار".

ولأن الغنائم ليست أهم شيئ عند الرسول ﷺ فقد حدث أن جاء وفد هوازن بعد أن انتهت الحرب يعلنون إسلامهم ويطلبون رد الغنائم فأعطاهم الرسول ﷺ ما معه وقال لهم إن معي من ترون وإن أحب الحديث إلى أصدقائه فأبناءكم ونساءكم أحب إليكم أم أموالكم؟" فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا.

فقام الرسول ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال "أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل, ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل" فقال الناس: طيبنا ذلك يا رسول الله, فقال لهم الرسول ﷺ "إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاءكم أمركم".

الحقائق التي تبرز من أخلاقيات الحرب في هذه الغزوة

١) أن الأخذ بالأسباب في الحروب مسئلة مهمة فالإعجاب بالكثرة في الأنفس والعتاد يولد الإحساس بالتعالي, ويهمل أسباب النصر, فلذا أعطى الله المسلمين درسا مهما في الأخذ بأسباب القوة والاعتماد على الله في نفس الوقت.

٢) أن الغنائم في الحرب ليست كل شيئ وأن كسب الغنائم لا ينبغي أن يكون على حساب المبادئ والقيم الإسلامية فتفادي الحرب وآثارها الضارة ومنها: الأسر والفداء مسئلة أهم. وقد ضرب الرسول ﷺ مثلا رائعا في العفو عند المقدرة وإطلاق سراح الأسرى والمن عليهم بالخلاص. وتبدو عظمة الرسول ﷺ هنا في مسئلة أخرى, هي أنه جعل الناس تتبعه في الفداء طواعية حتى لا يوغر صدورهم بإطلاق سراح من أخذه القوم من الأسرى مما جعلهم جميعا يتبعونه.

۳) أن من أخلاقيات الحرب كذلك: مراعاة البذل الذي قدمه الجنود والقادة وأخذ رأيهم في التجاوز عن بعض آثار الحرب المعروفة مثل: تسريح الأسرى والمن عليهم بالفداء. وقد بين الرسول ﷺ أن تحرير الأشخاص أهم بكثير من تحرير الأموال.

۴) السعي إلى استرضاء المؤمنين والمسلمين من أخلاقيات الحرب في الإسلام, فلا ينبغي الشديد على هؤلاء السابقين إلى الإسلام والذين آووا ونصروا ولو كان لهم موقف من القائد أثناء الحرب, كما فعل الرسول ﷺ مع الأنصار, فالمهم استمالة جانب من يغضب واسترضاءه, كل بحسب درجة إيمانه.

وهذه من أهم أخلاقيات الحرب في الإسلام التي تجلت في الغزوات النبوية واحترام المقدسات وتقديس الحرمات وعدم الاعتداء على حرمة الأماكن المقدسة وقبلها عدم الاعتداء على الأنفس ولو كان ذلك أخذا بثأر قديم أو حديث. وأظن شخصيا أن القانون الدولي الإنساني قد تبنى هذه القاعدة حديثا, فحرم العدوان على المقدسات وخاصة دور العبادة وحرم إلى جوارها الأماكن الثقافية مثل : المتاحف وأماكن الآثار كذلك حرم العدوان على المستشفيات والطائرات المخصصة للأغراض الطبية. وأن الله عز وجل أدب نبيه محمدا ﷺ وأحسن تأديبه فقد بدأ هو بتحريم العدوان على هذه المقدسات. ومع ذلك أن القوة المعادية للإسلام والمسلمين تسمر محاولاتهم في تشويه سمعة الإسلام والمسلمين ويتحدثون بأن نبينا محمد ﷺ رسول محارب يحب القتل والفساد في الأرض وانتصر على أعدائه بالسيف فهذه الكلمات تتحمل علامة استفهام وكبرت كلمات تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

الهوامش والمصادر

۱۔ د. جعفر عبد السلام, "مبادئ القانون الدولي العام" الطبعة السادسة ۲۰۰۳م, دار النهضة العربية بمصر, ص ۶۷.

۲۔ محمد سعيد رمضان البوطي, "فقه السيرة النبوية" دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة, القاهرة, ص ۱۵۶۔۱۵۷.

۳۔ روى ابن هشام في سيرته حديث الحباب بن المنذر هذا عن ابن اسحاق عن رجاله من بني سلمة فهي فيما رواه ابن هشام رواية عن قوم مجهولين. وذكر الحافظ بن حجر هذا الحديث في "الإصابة" فرواه عن ابن اسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغير واحد في قصة بدر. وهذا سند صحيح والحافز بن حجر ثقة فيما ينقل ويروي. راجع الإصابة

۲۰۲/۱

۴۔ ابن هشام, السيرة النبوية: ۵۰۲/۱, وزاد المعاد: ۸۷/۲, وحديث استغاثة الرسول صلى الله عليه وسلم بربه في غزوة بدر متفق عليه.

۵۔ رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المغازي

۶۔ يراجع النص الكامل في كتاب "حياة محمد" لمحمد حسين هيكل, ص ۳۵۶.

۷۔ الحديث سبق تخريجه.

۸۔ يراجع: سيرة ابن هشام, ۳۰۹/۳, "حياة محمد" لمحمد حسين هيكل, ص ۳۵۷ وما بعدها.

۹۔ راجع هذا القول محمد حسين هيكل في كتابه" حياة محمد" المرجع السابق, ص ۱۳۸ وما بعدها.

۱۰۔ يراجع: سيرة ابن هشام, ۳۱۲/۲.

۱۱۔ د. جعفر عبد السلام, "مبادئ القانون الدولي" مرجع سابق, ص ۳۸۸, وراجع دراسة للشيخ محمد العدوي في الرد على هذا المدعى, منشورة في مجلة "الجامعة الإسلامية" التي تصدرها رابطة الجامعات الإسلامية, العدد ۳۷, ص ۱۴۳.

۱۲۔ أوردت هذه الحادثة كافة كتب السيرة قديما وحديثا مثل سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وحللتها الكتابات الحديثة مثل فقه السيرة لمحمد الغزالي ولمحمد سعيد رمضان البوطي ولمحمد حسين هيكل.

۱۳۔ ذكرت هذه الرواية كافة كتب السيرة قديما وحديثا مثل سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وحللتها الكتابات الحديثة مثل فقه السيرة لمحمد الغزالي والنص لمحمد سعيد رمضان البوطي, ص-

۱۴۔ راجع: سيرة ابن هشام ۳۵/۳, طبقات ابن سعد ۴۰۰/۴ , فقه السيرة لسعيد رمضان البوطي: ص ۲۸۴, فقه السيرة لمحمد الغزالي: ص ۲۹۸ حيث يقول "كانت هذه القسمة مبنية على أسباب حكيمة فإن في الدنيا أقواما كثيرون يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم كما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم... كذلك فهذ الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان".